بحث عام | قسم الدراسات الدينية | 20 يناير 2017

# خطاب الناس في القرآن الكريم

## قراءة في نوعية المضامين وآفاقها

عدنان أجانة
باحث مغربي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017
All rights reserved © 2017

# خطاب الناس في القرآن الكريم[1]

## قراءة في نوعية المضامين وآفاقها

[1] ألقيت هذه الورقة في ندوة: «الشريعة في أفق إنساني: الثابت والمتحول؟»، المنعقدة بالرباط بتاريخ 11- 12 أبريل 2015، تنسيق: د. امحمد جبرون ود. صابر مولاي احمد. مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث.

**ملخص:**

كونية الشريعة وعمومها سمة بارزة من سمات الشريعة، وقد واكب هذه السمة خطاب قرآني متنوع، استوعب في تنوعه أنماط المتلقين وأحوال المخاطبين.

ومن أنماط هذا الخطاب خطاب عموم الناس، وهو خطاب ورد في أزيد من عشرين موضعا في القرآن الكريم، وتضمن مجموعة من المطالب، يمكن عدها أمهات المطالب وأصولها في الشريعة الإسلامية.

وعامة ما ورد من خطاب الناس هو في القرآن المكي المؤسس للدعوة الإسلامية، وهي مرحلة بنائية في الشريعة، تتأسس عليها أركان الشريعة وآفاقها.

ومن بين الإشكالات المؤطرة لهذا الموضوع والتي تتناولها الورقة؛ ما طبيعة هذا الخطاب؟ وما هي نوعية مضامينه؟ وما الأغراض والمقاصد التي تضمنها هذا الخطاب؟ وهل عموم الخطاب عموم في الزمان أم في المتلقي الأول فقط؟.

إنّ المتأمّل في خطاب الناس، في القرآن الكريم، يجد فيه معالم هادية، وأصولاً جامعة تخاطب الناس عامّة بعمق وشمول، وترتقي بالمخاطبين إلى أفق إنساني رحب.

وهذه المعالم الهادية مبثوثة في خطاب القرآن الكريم كالدرر المنثورة، ولا يتأتّى استشرافها إلا باستحضار البعد النصي للقرآن الكريم، وربط سوره بعضها ببعض، وإعمال النظر النسقي في مفاهيمه، وطرائق توظيفه، ومصطلحاته.

وهذا ما يحوجنا إلى استدعاء المقاربة السياقية لفاعليتها في هذا الباب، وقدرة السياق على الامتداد داخل النصّ، ورصد أنساب المعاني المتباعدة، والدلالات الممتدة، التي جرت عادة القرآن الكريم المعجز بترتيبه أن يرتّبها فيما بينها ترتيباً معجباً يدلّ على معمار هندسي فريد في بناء النصّ والخطاب.

والسياق، بوصفه أداة لتحليل الخطاب، حاضر في التراث العربي الإسلامي في جلّ ممارساته، لكن حضوره لم يرتقِ إلى الإعمال النسقي المنظّم نظراً لطبيعة الاشتغال المعرفي في تلك المرحلة؛ بل ظلّ مرتهناً بسمة التجزيء، سواء على المستوى النظري، حيث تمّت معالجة ظواهر سياقية بشكل منفرد، ودُرس كلّ منها على حدة، مثل: أسباب النزول، والمكي والمدني، والأشباه والنظائر، ونحوها؛ أم على المستوى التطبيقي، حيث تمّ التعامل مع مفردات السياق بطريقة تجزيئية اقتصرت على استدعاء بعض مكوناته وأنماطه.

وفي إطار الانفتاح المعرفي، الذي شهدته الدراسات اللسانية، صارت دراسة السياق تستند إلى المقاربة التداولية، وهي إطار أعم وأوسع ممّا مضى، وهذا ما منح السياق حضوراً أوفر، ومدى أرحب، وآفاقاً واعدة.

وبفضل النزعة التداولية للسانيات، صار الحديث عن السياق، الآن، رهناً بتساؤلات معرفية جديدة ومَعْنِيّاً بقضايا حديثة اقتضتها نوعيّة التحوّل، الذي طبع المنحى اللساني في أزمنته المتأخّرة، ونقله من الانغلاق البنيوي إلى الانفتاح التداولي، ومن النزوع إلى التفرّد في روافده، إلى الدعوة، إلى التعدّد في مصادره، ومن الاقتصار على الجملة إلى الانفتاح على النصّ، وهذا الإطار العام قد وسّع من قاعدة النظر السياقي، غير مقتصر بها على البعد الدلالي؛ بل على أبعاد أخرى جديدة.

وإعمال السياق يكون منتجاً، عندما يُستثمَر بطريقة نسقية تتفاعل فيها مكوناته، وقد اقترحت، في الدراسات التي أنجزت، في إطار تحليل الخطاب والنصّ، دوائر سياقية تحيط بالنصّ إحاطة الهالة بالقمر،

والأكمام بالثمر، وهي مداخل ضرورية لفهم النصّ يتناول كلّ منها جانباً من جوانبه، ومن أهمّها السياق التداولي، والمعرفي، والاجتماعي- النفسي، والاجتماعي، والثقافي[1].

وقد حاولت، في هذه الدراسة، استثمار بعض المقترحات السياقية، التي تمّ إغناؤها في حقل اللسانيات المعاصرة، وتحليل الخطاب، وهي مقترحات ساعدت على ضبط المداخل السياقية، وتدقيق علاقاتها، ورصد تقاطعاتها، وتجميع أجزائها.

وينبغي، هنا، تأكيد أنّ أيّ قراءة للتراث تتمّ في اللحظة الحضارية الحالية لا يشغلها همّ الإجابة عن الإشكالات المعاصرة، التي هي إشكالات منبثقة من صميم الواقع المعرفي، ستحكم على نفسها، ضرورةً، بالعجز؛ إذ لن تستطيع قراءةَ هذا التراث إلا قراءة مكرورة مجترّة، تعيده لغةً ومحتوىً، وحتى ذلك، لن يتحقّق لها القدر الكبير من النجاح؛ لأنّها لن تتفوّق، حتى لو اجتهدت، على أصحابه الذين أنجزوه انطلاقاً من هموم اللحظة الحضارية التي عاشوها[2].

ولا شكّ في أنّ الأزمة، التي مُنِيَ بها الخطاب الدعوي المعاصر، ترجع، في كثير من أسبابها، إلى أزمة المنهج والقراءة، والناظر في الخطاب الإسلامي المعاصر يجد فيه من التفاوت بين أهله في العناوين، والاختلاف في المضامين، والتنوّع في العرض، والتباين في المعالجة، ما يبعث على التساؤل عن مدى انتساب هذا الخطاب إلى رحاب الشريعة، ووفائه بمقاصدها وآفاقها.

وهذا التنوّع الذي يبعث على التساؤل، يؤسّس، أيضاً، لمشروعية المساءلة المعرفية عن أصول هذا الخطاب، ومضامينه، وبنياته، وأساليبه، من خلال عرضه على أصول الخطاب القرآني، الذي هو مادة الشريعة، ومتنها الأعظم، ليعلم بذلك وجه الموافقة والمباينة، ومواضع الزيادة والنقصان.

وما أروع البيان القرآني، وهو يعرّف بدعوة الرسول -صلى الله عليه وسلم- بقوله: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يوسف: 108].

فقوله {أدعو إلى الله على بصيرة}، يبيّن أنّ الدعوة إلى الله لا بدّ لها من التبصُّر، وهو وعيٌ زائد على المعرفة والعلم، يتجاوز المعارف والأحوال الظاهرة إلى آفاق من المقاصد العلية، والمضامين الجليلة. والدعوة التي ينقصها التبصُّر دعوة تضرّ أكثر مما تنفع، ويسيء صاحبها من حيث أراد أن يحسن.

---

1 يُنظر في شرح المراد من هذه الدوائر السياقية: كتاب فان دايك (Van.Dijk)، النص بنياته ووظائفه: مدخل أولي إلى علم النص، ضمن كتاب: نظرية الأدب في القرن العشرين، ترجمة وإعداد الدكتور محمد العمري، إفريقيا الشرق، المغرب، الطبعة الثانية، 2004م، ص 66

2 ينظر: الدكتور يحيى رمضان، القراءة في الخطاب الأصولي: الاستراتيجية والإجراء، عالم الكتب الحديث، الأردن، الطبعة الثانية، 1432هـ-2011م، ص 28

وأزمة الخطاب الدعوي ترجع، في كثير منها، إلى عدم التبصّر في خطاب القرآن الكريم، وعدم استلهام أساليبه، وقضاياه، ومقاصده، وأغراضه الكامنة في الخطاب، وذلك أنّ سرّ نجاح الخطاب القرآني كامن في مراوحته بين أنماط الخطاب، وتلوينه لأساليب العرض، وتأسيسه الخطاب على مرجعية مشتركة بين المخاطبين، ورفعه مضامين الخطاب إلى مقاصد سامية تمدّ رواقها على جميع الناس.

وكونية الشريعة أساس فقه الدعوة، وبها امتدّ شعاع الإسلام قديماً ليشتمل على مختلف ربوع الأرض، وقد كانت الطلائع من المهاجرين، والتجار، والرحّالة، وفوداً وسفراء، واعين بهذا العمق والبعد الكوني، فانطلقوا بعفوية وتسامح يعرِّفون الناس بهذا الدين، ويتصرّف كلّ واحد منهم بما معه من القرآن الكريم، ومن الثقافة الإسلامية. وبهذا المجهود، الذي كان فردياً، انتشر الإسلام، وعمّ ربوع الأرض.

والخطاب القرآني يخاطب النوع الإنساني، موظِّفاً، بذلك، ما في اللغة من طاقات دلالية، وقدرة على البلاغ والبيان، وهو يقوم على مجموعة من المفاهيم الضابطة، والقضايا المترابطة، وينسج بينها رابطاً مفهومياً يؤسّس، في النهاية، خطاباً رصيناً في العناوين، عميقاً في المضامين، يهدف إلى جعل الإنسان المستخلِف محور الخطاب القرآني.

إنّ المتلقي للقرآن الكريم هو الإنسان، بغضّ النظر عن عرقه، أو جنسه، أو ثقافته، أو انتمائه، وقد خاطبه القرآن، على امتداد صفحاته، وجعله مركز الاهتمام، وموضع العناية، وهذا المتلقي النوعي مهما اختلف يؤول إلى مشترك جامع هو مناط الخطاب القرآني.

وقد وظّف الخطاب القرآني، في الدلالة على هذا المتلقي العام، مجموعة من المصطلحات استثمرها لإيصال خطابه إلى الإنسانية كافة، وعلى رأسها لفظ (الناس)، و(العالمين)، و(الأمة)، و(بني آدم)، و(الإنسان)، وهي مفاهيم مركزية في الخطاب القرآني تتردّد كثيراً ضمن توزيع محكم داخل القرآن الكريم، وقد مثّلت نسيجاً مترابطاً، ووحدة مفهومية يحكمها نسق مقاصدي، وبُعد كوني، وأفق إنساني رحب.

ومن أعمّ هذه الألفاظ، وأكثرها استعمالاً في الكتاب، لفظ (الناس)، فقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم أزيد من (230) مرّة، وترجع مادته اللغوية إلى معنى النوس والحركة[3]، وهو لفظ عام يشتمل على الإنس

3 ينظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ - 1979م، مادة (نوس) 369/5

والجن[4]، كما يطلق، ويراد به، أيضاً، مَن وُجد فيه معنى الإنسانية؛ أي إنسان كان، وربما بما قصد به النوع[5]. وهو اسم جمع لا مفرد له من لفظه ومفرده إنسان[6].

واستعمال الناس في القرآن جاء في موارد سياقية متعدّدة، فتارةً يُستَعمل اسم جنس للدلالة على الإنسانية جمعاء، وتارة يستعمله للإشارة إلى قوم مخصوصين حاضرين أثناء الخطاب[7].

والبعد الحركي والإنساني متضمّن في لفظ الناس؛ لذلك كان اختيار هذا اللفظ لما يتضمّنه من الفعل بمقتضى الحركة، ومن القيم بمقتضى الإنسانية.

وورود خطاب الناس في القرآن المكّي المؤسّس للدعوة الإسلامية دالٌّ على أنّ خطاب الشريعة وُجِّه إلى عموم الناس ابتداءً، وأنّ المجتمع المكّي كان العيّنة التي انطلق منها، والقرآن المكّي يتضمّن كلّيات الشريعة الجامعة، وهو أصل للقرآن المدني[8].

وتركيز الخطاب القرآني على هذا اللفظ بخصوصه، واختياره على غيره من الألفاظ، يؤذن بقيمته وغنائه في الدلالة على البعد الإنساني في الإنسان، وعلى القيم التي يحملها هذا الإنسان، والتي جاء القرآن الكريم ليزكّيها ويبعثها.

وخطاب الناس في القرآن له أنماط وموارد، منها مورد النداء الذي بثّ فيه الله -سبحانه وتعالى- مجموعة من المضامين السنية، التي تنتقل بالناس إلى عالم أرحب، وأفق واسع، يتوحّدون فيه تحت رواق الشريعة الإسلامية الذي يمتدّ سابغاً على العالمين.

ونداء الناس في القرآن الكريم تردّد في واحدٍ وعشرين موضعاً في تسع سور؛ خمسٌ منها مكّية وهي: الأعراف، ويونس، والنمل، ولقمان، وفاطر، وأربع مدنيّة وهي: البقرة، والنساء، والحج، والحجرات.

4 ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، مادة (نوس)، 245/6

5 ينظر: الراغب الأصبهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، ص 509

6 ينظر: لسان العرب، مرجع سابق، مادة (أنس) 10/6. والزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، مجموعة من المحققين، دار الهداية، مادة (أنس)، 415/10

7 د. احميده النيفر، أستاذ التعليم العالي في جامعة الزيتونة (تونس)، عالمية الخصوصية في الخطاب القرآني، مقال منشور ضمن موقع الرابطة المحمدية، مركز الدراسات القرآنية: http://www.alquran.ma/Article.aspx?C=5802

8 ينظر: الشاطبي، الموافقات، تحقيق أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة الأولى، 1417هـ - 1997م، 236/3

وورودها في العهد المدني يردُّ قول مَن ذهب إلى أنّ من خصوصيات العهد المكّي النداء بـ يا أيها الناس[9]. كما أنّ هذا التوزيع المتساوي، تقريباً، بين عهدي القرآن الكريم، يؤذن بأنّ نداء الناس في القرآن ظلّ قضية مركزية لم تتغيّر بتغيّر الزمان، ولا المكان؛ فحتى في العهد المدني، الذي هو عهد التشريع، ظلّ نداء الناس يتردّد في ثناياه، وهذا ما يجعل المُخاطَب الأول والأخير عموم الناس.

وهذا النداء المباشر الموجّه إلى الناس افتُتِح في المواضع كلّها بحرف النداء (يا)، وعلى كثرة وقوع النداء في القرآن لم يقع نداء إلا بحرف (يا)، وهي أعمُّ حروف النداء؛ إذ يُنادى بها القريب، والبعيد، والمستغاث، والمندوب.

وأسلوب النداء هو أسلوب إقبال، يُقبِل به المتكلم على المخاطب، ويكون فيه من لطيف التواصل، وجميل الأثر، ما ينعكس على المُخاطَب نفعاً واستجابة.

و(الناسُ) اسم جمع، نودي، هنا، وعُرِّفَ بأل ليشمل كلّ أفراد مسمّاه؛ لأنّ الجموع المعرَّفة باللام للعموم، وهي في العموم أنصّ من عموم المفرد المحلى بأل[10].

وإذا كانت صورة الخطاب في آيات النداء موجّهة إلى ناس سامعين مخصوصين، فهذه الصورة تعمّ لتشتمل على من لم يحضر وقت سماع هذه الآية، ولمن سيوجد من بعد، وهذا التعميم يقتضيه عموم التكليف، وعدم قصد تخصيص الحاضرين، وهذا من أضرُب الخطاب، الذي لا يكون لمعيَّن، فيُترَك فيه التعيين ليعُمَّ كلّ مَن يصلح للمخاطبة بذلك[11]. وقول بعض المفسرين إنّ الخطاب خاصّ بمشركي مكّة[12] لا يتوافق مع مقتضيات السياق، ودلالة الألفاظ.

والدوائر السياقية الحافة بالنصّ القرآني تؤول إلى أصلين:

- سياق داخلي.

- سياق خارجي.

أمّا السياق الداخلي، فإنّ موقع الآيات داخل النسق القرآني، وترتيبها في مواضعها، وعلاقاتها بما قبلها وما بعدها، وتوزيعها على السور المكّية والمدنية، يوقف الناظر على ملامح دقيقة من الاختيارات المنهجية والدعوية، وهذا الوضع والتوزيع مرتبط بمقصد الخطاب والمضامين.

9 الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، الطبعة الأولى، 1376 هـ - 1957م، 189/1

10 الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م، 325/1

11 نفسه 325/1

12 الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق عبدالرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 121/1. وأبو حيان، البحر المحيط، دار الكتب العلمية، تحقيق مجموعة من المحققين، لبنان-بيروت، الطبعة الأولى، 1422هـ - 2001م، 232/1.

وقد ترتّبت آيات النداء في نسق المصحف على وجه من الترتيب بديع، كان أوّلها مطلب العبادة، في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[البقرة: 21].

وآخرها مطلب التعارف بين الناس، وبيان الأكرمية بالتقوى، في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[الحجرات: 13].

وبينهما مجموعة من المطالب، التي يتراوح فيها الخطاب بين مطلب التقوى، والإيمان، واتّباع الرسول، وذكر نعمة الله، وسماع الأمثال، والتعريف بالرسول صلى الله عليه وسلم، وأكل الحلال، وتجنُّب خطوات الشيطان، ووصف مضامين التشريع بـ (البرهان، والنور، والموعظة، والشفاء، والهدى، والرحمة، والحقّ)، والتحذير من عاقبة الاغترار، وبيان افتقار الخلق إلى ربهم.

وهذه المطالب هي أصول الدعوة القرآنية تلَخّص مقاصده وأغراضه، وتبيّن معالم الدعوة، ومنهج الخطاب، وتؤسّس للبيان الدعوي الراشد.

والمُلاحظ أنّ هذه المطالب لم تَرِدْ مجرّدة معزولةً عما يسندها ويعضدها؛ بل اقترنت، في سياق الكلام، بما يناسبها من التعليل والتقرير، وتمّ إجراء الخطاب فيها بمخاطبة الوعي الإنساني؛ لأنّ الخطاب فيها ارتكز على قضايا أساسية، ومرجعيات لا تختلف من زمان لآخر. وبهذه المرجعيات العامّة، استطاع القرآن أن يجرّد المقام التواصلي، وينفتح به على مقام ممتدّ فسيح، لا يحتوي عليه زمان ولا مكان؛ بل هو الذي احتوى الزمان والمكان.

وهذه المرجعيّات المذكورة في مضامين النداء دارت على قضايا محورية ثلاث تتّصف بالعموم والشمول، والاطراد. وهذه القضايا هي:

**1- قضية الافتقار:**

نقرؤها في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}[فاطر: 15].

وقوله: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}[فاطر: 3].

وقوله سبحانه: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً}[النساء: 1].

**2- قضية الاغترار:**

نقرؤها في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ}[الحج: 1].

وقوله سبحانه: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ} [لقمان: 33].

وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ} [فاطر: 5].

**3- قضية الاعتبار:**

نقرؤها في قوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [الأعراف: 158].

وقوله سبحانه: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً}[النساء: 174].

وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ} [يونس: 57].

وقوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ} [يونس: 108].

وهذه القضايا الثلاث، التي تضمّنها نداء الناس في القرآن، قضايا إنسانية عامّة، تتّصف بها البشرية في جميع أطوارها ومراحلها.

فالافتقار سمة متأصّلة في الإنسان لا ينفكّ عنها بمقتضى خلق الله له، وتوقف أموره عليه، والافتقار إحساس داخلي، وحقيقة وجودية تترجمها حاجة الإنسان إلى المأكل، والمشرب، وأمور الحياة كلّها، حيث لا يستقلّ الإنسان بها وحده؛ بل لا بدَّ له من المُعين المُساعد، وحتى ما يعرض له من قوة الشباب نجده قوة بين ضعف الطفولة وضعف الشيخوخة، ما يجعل الافتقار سمةً بارزةً في حياة الإنسان، محيطة به، بادية عليه، لا ينفك عنها، وهذا يجعل الإنسان مستطيعاً بغيره غير قائمٍ بذاته.

وهذه الحقيقة الوجودية، التي يشير إليها القرآن في خطاب الناس، يؤسِّس عليها دعوتهم إلى الاستغناء بالإيمان بالله، والتوكُّل عليه، ليعوضوا النقص الكامن في الافتقار، بما يقابله من الاستغناء بالإيمان.

وأمّا الاغترار، فهو سمة عارضة، وعلّة طارئة سببها الوهم بالغنى والاستقلال، وعدم الاحتياج، والقرآن الكريم، عندما يتحدث عن قضية الاغترار، يربطها باليوم الآخر، وبوعد الله تعالى، في إشارة واضحة إلى أنّ المغرور لا يتسنّى له رؤية الأشياء بوضوح؛ لأنّ غفلته التي أوجبها اغتراره تمنعه من معرفة الأشياء على وجهها وطبيعتها، وتجعله يعيش في حياة ملؤها الوهم والخداع، يغترُّ بما له من القوة الفكرية، أو الجسدية، أو المادية، وينسى أن هذه قوّة عارضة كونها قوّة مكتسبة، وهذه السّمَة مناقضة لسِمَة الافتقار، فإذا كان الافتقار يورث اليقظة، والإقبال، ومعرفة القصد، فإنّ الاغترار يورث الغفلة، والإدبار، وجهل القصد.

أمّا السِمَة الثالثة، فهي الاعتبار، ومردّها إلى آليات النظر التي يتّسم بها الإنسان، وهي آليات تمنحهُ حقَّ الاختيار، وحرية التفكير.

وهذه السّمَةُ هي آلية للتقويم، وأداة للترجيح، بها يتبيّن الإنسان موقعه بين الافتقار والاغترار، وعلى هُداها يسير في هذه الحياة، والآيات التي تحدّثت عن هذه القضية تبيّن، بجلاء، روافد هذا الاعتبار، وهي، عند التأمُّل، راجعة إلى مدارك العقول، التي يشترك فيها الخلق جميعاً، ووصفت هذه الروافد بصفات عليّة منها: النور، والبرهان، والهدى، والرحمة، والشفاء، والموعظة، وهذه الصفات، تدور في فلك البيان والتبيُّن، وقد أبرزها القرآن في معرض التعميم؛ ليبيّن أنّ الدعوة القرآنية تقوم على هذه الأسس، وتتّسم بهذه السمات التي تجعلها، عند التأمُّل من الإنسان المُخاطَب، موضع اعتبار.

وعليه، فإنّ الخطاب القرآني يتأسّس على مخاطبة العقل الإنساني، من خلال حمله على ملاحظة وتأمل هذه الروافد المتّصفة بالهدى، والنور، والبرهان؛ لتحمله على الاقتناع والاتّباع، ومن ثمّ هو لا يخاطب المتلقي ليدخل تحت المطالب المتقدّمة بلغة القهر والجبر؛ بل بلغة الاختيار والاعتبار.

وتركيز الخطاب القرآني على هذه السمات في سياق آيات النداء تذكير بهذه السمات الكامنة في الإنسان، وهي سمات عامة في كلّ زمان ومكان، تمثّل مرجعية الخطاب وإطاره الذي يتحرّك فيه، وهي مرجعيّة لها سمة الثبات والاطراد. وعلى هذه القضايا الثلاث انبنت المطالب التي وردت في آيات النداء.

فالافتقار علّة ذاتية، وسِمَةٌ أصلية، يتصرّف الإنسان في حياته على مقتضاها، وتعرض له الأمور على وفقها ووزانها، وليس له أن يخرج من دائرة الافتقار؛ لتوقّف حياته على هذه السمة.

والاغترار سبب مانع، وعلّة صارفة، تصرف الناس عن ملاحظة افتقارهم، وتأمُّل حالهم، وتجعلهم يتوهمون أنّهم مستقلون أغنياء، لا حاجة لهم إلى غيرهم، ولا افتقار لهم إلى أحد.

والاعتبار وعي ذاتي، وآلية إصلاحية داخلية، تميّز بين الافتقار والاغترار، وتؤسّس لمعرفة ذاتية وجدانية، تستجيب لدواعي الفطرة وتطلّعاتها.

واقتران المطالب بالتعليل رفع من مستوى الخطاب إلى أفق التأمُّل ومستوى الفكر، ودعوة المخاطَب إلى إعمال النظر في هذه المطالب، والبحث عنها وعن عللها وأدلتها.

وهذه المطالب -كما سَلَف- هي أصول الخطاب الدعوي في القرآن الكريم، وعليها تتأسّس دعوة الشريعة، وبها تنفتح على العالمين؛ لأنّها مطالب حاضرة في كلّ جيل، وسماتٌ بارزةٌ في كلّ مجتمع، وقضايا إنسانية عامّة تمثّل مرجعية الخطاب، وأرضية التخاطُب.

ولا شكّ في أنّ خطاب الناس بالمشترك الجامع، وتعليل المطالب المضمنة في الخطاب، ومخاطبة الوعي، والشعور، والإدراك، ورفع مقاصد الخطاب إلى مستوى جلب المصالح، ودفع المفاسد، كلّ هذا من أصول الدعوة، وفقه الخطاب، الذي لا نجد له كبير صدى في الخطاب الدعوي المعاصر.

وأمّا السياق الخارجي، فهو يحيلنا على معانٍ أُخَر تكتنف هذه الدلالات، وتحيط بهذه المضامين، وإذا كان من شأن الخطاب أن يرتبط إنجازه بمقامه التواصلي الخاصّ، الذي أُنجز فيه، فإنّ القرآن الكريم، في خطابه لعموم الناس، يجرّد من هذه المقامات التواصلية الخاصّة مقاماً تواصلياً عامّاً، يكون بمثابة الإطار الذي تندرج فيه مقامات متشابهة متكررة في الزمان والمكان، ما يسمح بدخول المخاطَب فيها في كلّ زمان ومكان.

ولننظر في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[الحجرات: 13].

فهذا تجريد لمقام تواصلي عام، توجّه فيه الخطاب منساباً منتقلاً بين الأزمنة والأمكنة، ينادي الناس كلّهم، ويخبرهم بواقع لا ينكرونه، وهو خلق الناس أزواجاً وجعلهم شعوباً وقبائل، هذا واقع مُشاهدٌ محسوس وأمرٌ لا يعتريه الشكّ، والقرآن لا يذكره ليفيدهم بذلك معرفة زائدة على ما عندهم، ولكن يذكره ليؤسّس عليه أمراً آخر، وهو بيان المقصد من هذا، والحكمة الموجبة لهذا التنوّع في الخلق، والتعارف بين الناس.

وهذا الانتقال من حقائق الوجود إلى بيان العلل والمقصود، هو رفع من مستوى الوعي لدى المخاطب، وانتقالٌ به من عالم الظواهر إلى موقع التأمُّل، والملاحظة، والتفكير، وتنبيه له على هذه المقاصد السنيّة، من أجل أن يُلاحظها، ويقصدها في تديُّنه، وهو، بعد ذلك، دعوة مفتوحة لكلّ الناس أن يتفكروا في هذه الحقائق، ويتعرّفوا إلى هذه الظواهر، وهذا الخطاب العام صالح لأن يخاطب به في مقامات تواصلية متعدّدة؛ لأنّ مضمونه قضية ثابتة محورية، تتغيّر مظاهرها، ولا تتبدّل حقائقها.

وهذه الظواهر، التي يتحدّث عنها القرآن الكريم في خطابه للناس، وأعني بها قضية الخَلق، وإنزال المطر، وتصريف النعم على الخلق، وغير ذلك، ظواهر يعرفها كلّ الناس، ويستثمر القرآن الكريم هذه المعرفة، بوصفها أُطراً عامة -كما يسميها فان ديك- يتكفّل بها السياق المعرفي للمُخاطَب[13]، وهو السياق المبني على الحصيلة المعرفية لدى المخاطَب حول العالم، وذلك أنّ المعرفة النصية قوية التبعية لمعرفتنا بالعالم، وهذه المعرفة بالعالم تكون عامّة، إلى حدٍّ ما، وخاضعة للمواضعة داخل المجموعة اللسانية، فنحن جميعاً نعلم مجموعة من المعارف المُشاعة المتعلقة بحياتنا، ولهذه الأطر أهمية كبرى في تصوّرنا، وتأويل النصوص، التي تحيل على أنماط الحوادث المذكورة، والمخاطَب يواجه النصّ بالاستعداد المعرفي الذي يملكه، وهذا الاستعداد المعرفي هو مجموعة من العناصر المترابطة، التي تسهم إسهاماً عامّاً في فهم النصّ.

وعلى هذه الأطر المعرفية العامّة، يبني الخطاب القرآني دعوته، وعلى أساسها يجرّد من المقام التواصلي الخاصّ مقاماً تواصلياً عامّاً يشترك في التفاعل معه كلّ الناس.

وهذا المقام التواصلي العام، يؤكّده القرآن الكريم، من خلال استثماره مرجعيات عامّة في الخطاب، وهي ما سلف من القضايا الثلاث: قضية الافتقار، والاغترار، والاعتبار، ما يؤهّل الخطاب لينتقل عبر المخاطبين، والزمان، والمكان.

ثمّ إنّ المطالب المتضمنة في آيات النداء يُنظر إليها، في السياق التداولي، بوصفها أفعالاً كلامية تختزل في بنيتها الأبعاد التداولية والسياقية، وهذه الأفعال تُنجز وفق قواعد قد تعلمها كلّ شريك لغوي، من خلال محيطه الاجتماعي، تعلُّماً تامّاً، ويمتلك الشركاء في التواصل اللغوي معرفة مشتركة بالقواعد، والشروط الخاصّة بالتواصل، ويمكن للمتلقي، بناءً على تلك القواعد والشروط السارية عُرفياً، التوصُّل إلى طريقة الفهم، التي يطمح إليها المتكلّم. وعلى ضوء هذه القواعد والشروط، يتمّ تفسير المنطوق، وتوجيهه، وتصنيفه، إلى خبر، أو استفهام، أو أمر، أو نحو ذلك[14].

وهذه الأفعال تؤثّر في المخاطَب بشرط معرفته السياق التواصلي، فإن فات المخاطبَ معرفةُ هذا السياق فات الأثر، الذي تُحدِثُه هذه الأفعال في المتلقي؛ لذلك فإنّ أفعال الكلام لا يمكن استحضارها إلا باستحضار الشروط التداولية، ومقتضيات المقام والحال؛ لأنّه لا يكفي أن يتلفّظ بالفعل ليحصل بذلك ما يترتّب عليه؛ بل قد يعرض أن يتلفّظ بالفعل، ومن ثمّ لا يوجد له أثر في الخارج، ومن ثمّ يشترط في إنجاز التلفُّظ بالعبارة أن

---

13 فان دايك، النصّ بنياته ووظائفه، ترجمة العمري، ص 68. (ويترجمه منذر عياشي بالسياق الإدراكي) ينظر: فان دايك، النصّ بُنى ووظائف، منشور ضمن كتاب: منذر عياشي، العلاماتية وعلم النصّ، ص 174

14 ينظر: كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنصّ، ترجمة بحيري، ص 110

تكون مطابقة لمقتضى الحال[15]. ومعنى هذا، أنّ أفعال الكلام خاضعة لقواعد اجتماعية تداولية تكون معلومة سلفاً لدى المتلقي، وعلى ضوئها يتمّ تأويل العبارات في النصّ، «ولا بدَّ من توافر مجموعة من الشروط السياقية القادرة على إنجاز هذه الأفعال»[16].

والحديث عن هذا التأثير والنفوذ في أفعال الكلام يتّجه بنا نحو السياق الاجتماعي النفسي. والنظر في هذا السياق مبنيّ على الإشكال الآتي: ما أثر النصوص أو وقعها في مستعملي اللغة، فُرادى وجماعات؟ والبحث فيه ينظر في امتداد النصّ ونفوذه في المخاطَب والمجتمع، وكيف يُسهِم النصّ في تأطيرِ الأفراد، والجماعات، والفرق.

وقد اشتمل القرآن الكريم على خاصية التأثير والنفوذ إلى أعماق المُخاطب، وتحريك عامل الاستجابة والتأثُّر فيه، ولعلّ من الدراسات، التي ينبغي أن تُنجَز في هذا؛ بيان أثر السياق النفسي في التفاعل مع القرآن والتأثُّر به.

ومن مداخل التأثير ما يتعاهد به الخطاب القرآني المخاطب، من ضروب البيان، والإيضاح، والإقناع، وقد اشتملت آيات النداء، كما سلف، على مطالب اقترنت بالتعليل والاستدلال، وتمّ التركيز فيها على قضايا ثلاث هي: الافتقار، والاغترار، والاعتبار، وهذه الثلاثية تسهمُ في جعل المتلقي يتأثَّر بالخطاب عن طريق الاقتناع والتأمُّل. فيكون سبب التأثير داخلياً، وهو التأثير النافع المثمر.

وعلى الرغم من الأبحاث التجريبية الكثيرة المتعلّقة بأثر التواصل اللفظي في تحريك الآراء والمواقف، وتوجيهها، فإنّ علماء علم الاجتماع النفسي لا يعرفون إلا القليل عن العناصر، التي تُحدث أثراً في القارئ. ويبدو أنّ ثمّة إمكانية، في المستقبل القريب، لتوضيح طبيعة هذه العمليات المحرّكة للقارئ والمخاطب، وذلك عن طريق تطبيق نتائج البحث في ميدان علم النفس المعرفي، وعلم النفس الاجتماعي[17].

وبما أنّ النصّ، في كلّيته، يتضمّن أفعالاً كلاميةً كثيرة، فإنّ فان دايك يقترح دمج هذه الأفعال ورجعها إلى أفعال تداولية كبرى تنتظم بها جميع أفعال النصّ[18]، وعلى هذا، فإنّه يوجد في كلّ متوالية من الأحداث اللغوية إنجاز نظري واحد يعطي المقصود من السلسلة بأكملها.

15 أوستن، نظرية أفعال الكلام العامة، ترجمة عبد القادر قنيني، ص27. ويُنظر: زتسيسلاف واورزنياك، مدخل إلى علم النصّ مشكلات بناء النص، ترجمة بحيري، ص 21 وما بعدها. فولفجانج هاينه من، وديتر فيهفيجر، مدخل إلى علم اللغة النصّي، ترجمة فالح العجمي، ص 65

16 النص بنى ووظائف، فان دايك، ترجمة العمري، ص 53

17 المرجع نفسه، ص 72. ويشار هنا إلى، ولا يمكن استيعاب؛ جميع السياقات على التمام، حيث لا يشذّ على المحلل منها شيء؛ لأنّ ذلك لا يدخل في الاستطاعة، ويفضي إلى العنت، وإنّما يتمّ الاقتصار على السياقات المهمّة والمباشرة في التحليل، "ويشير هايمس إلى أنّ بإمكان المحلل أن يختار الخصائص الضرورية لوصف حدث تواصلي خاصّ، بمعنى أنّ هذه الخصائص ليست كلّها ضرورية في جميع الأحداث التواصلية"، ولكن "بقدر ما يعرف المحلل أكثر ما يمكن من خصائص السياق، بقدر ما يحتمل أن يكون قادراً على التنبؤ بما يحتمل أن يقال". ينظر: لسانيات النصّ، محمد خطابي، ص 53

18 النصّ بنى ووظائف، ترجمة عياشي، ص 174، وترجمة العمري، ص 68

وإذا رجعنا إلى آيات النداء، فإنّنا نلاحظ إمكانية دمج المطالب المتضمّنة فيها إلى مطلب واحدٍ كبير، وهذا المطلب الكبير يرتبط بغيره من المطالب الجزئية ارتباط الجمع، والتلخيص، والتكثيف. وترتبط المطالب الجزئية به ارتباط الشرح، والبيان، والتوضيح. فتكون العلاقة بينهما علاقة إجمال وتفصيل، وهذا الارتباط يقدّم للمخاطَب المتلقي الخلاصة، أوّلاً، في مطلب واحد كبير، ثمّ يشرح له متضمّن الخلاصة في مطالب متفرعة عنه، آيلة إليه.

وقد نبّه القرآن الكريم على هذا المطلب الجامع، من خلال نسق الترتيب المصحفي، الذي نجد آيات النداء فيه ترتّبت على نسقٍ من الترتيب يراعي هذا المقصد، وينبّه عليه.

وأوّل آيات النداء، التي صدر بها الخطاب القرآني، قوله سبحانه في سورة البقرة: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: 21].

وقد تضمّنت الآية مطلب العبادة، وهو مطلب لم يتكرّر بلفظه في آية أخرى، بخلاف غيره من المطالب التي تكرّرت، فمطلب التقوى والإيمان، مثلاً، تكرّر في آيات نداء الناس. أمّا مطلب العبادة فاقتصر به على آية التصدير، ما يجعله ينزل منزلة العنوان الجامع المُلخِّص لما سيأتي بعده من المطالب.

وآية النداء في سورة البقرة سبقتها عشرون آية، كان الحديث فيها عن موقف الناس من رسالة الوحي الخاتم، من مؤمن مصدِّق، ومعارض مُنكر، ومتذبذب بينهما، وهذه القسمة الثلاثية، بعد أن خاطب الله كلّ قسم منها بما يلائمه، جمعها في قسم واحد كبير، وناداها في صعيد واحد، معلناً بذلك الأرضية المشتركة بين جميع هؤلاء، سواء من آمن، أم من أعرض، أم من نافق، فلما استوفى أحوال المؤمنين وأضدادِهم من المشركين والمنافقين، تهيّأ المقام لخطاب عمومهم بما ينفعهم إرشاداً لهم ورحمة بهم؛ لأنّه لا يرضى لهم الضلال. ولم يكن ما ذُكر آنفاً، من سوء صنعهم، حائلاً دون إعادة إرشادهم، والإقبال عليهم بالخطاب، ففيه تأنيس لأنفسهم بعد أن هدّدهم، ولامهم، وهذا الاستئناس، وجبر الخواطر، يزداد به المحسنون إحساناً، وينكف به المجرمون عن سوء صنعهم، فيأخذ كلّ فريق، من الذين ذُكِروا فيما سلف، حظَّه منه[19].

وقد اشتمل هذا الخطاب على التذكير بدلائل الصنعة وهي خلق أصولهم، وبأصول نعم الحياة، وهي خلق الأرض والسماء، وإنزال الماء من السماء لإخراج الثمرات. وفي هذا التذكير بالأصول، اقتصار على القدر الثابت في فطرتهم؛ إذ لم يكن لديهم من الأصول الدينية ما يُمكن أن يُجعل مرجعاً في المحاورة والمجادلة يقتنعون به[20].

19 الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، 323/1

20 المرجع نفسه، 447/1

ومطلب العبادة رأس المطالب القرآنية في نداء الناس، وهو مطلب عام كلّي تندرج تحته باقي المطالب، وتشرحه وتوضحه. وليست العبادة، هنا، بالمعنى الخاصّ المقتصر على الصلاة ونحوها مما شرّعه الله، كما فهم بعض المفسّرين، وبنوا عليها القول بمخاطبة غير المؤمنين بفروع الشريعة، كما بنوا عليها تخصيص لفظ الناس الوارد في الآية، فهذا منافٍ لمقتضى السياق، ومعارض له.

إنّ معنى العبادة الوارد في آية النداء الأولى يبيّنه قوله تعالى في آية أخرى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: 56].

حيث جعلت العبادة مقصداً عامّاً، وكلّية جامعة، منها تتفرع مطالب الشرع، ومقتضيات التشريع، وهذا المعنى مناسب لمعناها الوارد في لسان العرب؛ إذ قيل في معنى العبادة إنّها الخضوع لله بالطاعة، والتذلّل له بالاستكانة[21]، وهي تطلق على غاية التذلّل[22].

وهذا التذلّل يحرص الخطاب القرآني على أن يكون سببه الداعي إليه هو الحب والانقياد الطوعي، وليس التقليد والمتابعة من غير وعي ولا تفكير؛ لأنّ التذلّل والخضوع لا يكون بالقهر والغلبة؛ بل بالحب والاقتناع.

وفي لفتة كريمة إلى حضور هذا البعد في العبادة، يحدّثنا القرآن الكريم، في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام، في مخاطبته قومَه وحجاجه لهم في عبادتهم الكواكب، قال تعالى: {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ} [الأنعام: 76].

لا أحبه فكيف أعبده؟ في إشارة واضحة إلى ارتباط العبادة بهذا البعد الوجداني، والعلاقة الشخصية بين العبد وربه الذي خلقه، وهذا الحبّ هو الذي جعل آية النداء في سورة البقرة تركّز على ما يثيره في نفس المتلقي، من خلال ذكر النعم التي خصّ الله بها بني الإنسان نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، وتعداد النعم، تحريك لمشاعر الحبّ، وبيان لمستوى الإحسان، الذي خصّ به الإنسان، وتحريك للإحساس في اتجاه الاعتراف، الذي يثمر حبّاً ينقلب إلى عبادة.

والخطاب القرآني لا يقتصر على الجانب العاطفي؛ بل يدعو إلى النظر في بدائع الوجود، من خلال دليل العناية، ودليل الاختراع، وذلك حتى تكون النتيجة، التي يصل إليها الفكر والتأمُّل، على وفاق النتيجة التي يصل إليها القلب والمشاعر، فيلتقي الاقتناع والحب، فتتولّد العبادة التي أمر الله بها، وهي عبادة مبنيّة على التعقُّل في ممارسة العبادة، والحبّ للمعبود جلّ جلاله.

21 ينظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1420هـ - 2000م، 363/1

22 الراغب الأصبهاني، مرجع سابق، ص 319

ودعوة الناس إلى العبادة، وربطها بالربوبية والخلق، إشارة إلى أن هذه الدعوة هي، في الأصل، مدّ لرواق الشريعة على العالمين، وذلك أنّ الخلق كلّهم لما كانوا عبيداً لله، بمقتضى خلقه لهم على جهة الاضطرار، أمرهم أن يكونوا عباداً له على جهة الاختيار، ليكتمل النموذج الأكمل، ويمتدّ رواق العبادة عليهم ناشراً ظلّه، فهم داخلون في دائرة الخلق بمقتضى القهر، وفي دائرة العبادة بمقتضى الأمر.

ثمّ إنّ مطلب العبادة مرتبط بمقصد التقوى، وهي كلمة جامعة تعني يقظة الضمير، وحضور الوعي، وارتباط العبد بمفهوم المراقبة، والتعبير بصيغة الجمع، وبالفعل المضارع الدال، في هذا السياق، على زمن ممتدٍّ غير منقطع، يجعل من التقوى أُفقاً سامياً، ومدىً يصل إليه العابد، ومقصداً يؤمه، ويركّز عليه.

إنّ خطاب الناس في القرآن يتأسّس على رؤية شاملة دقيقة، وتقوم مضامينه على خصائص كونية يشترك فيها كلّ إنسان، فعندما يخاطب القرآن العربي والعجمي، فهو يخاطبهم بالمشترك الجامع، فيفهمه كلّ متلقٍّ، ويعي عنه كلّ سامع؛ لأنّه يُخاطب أصل الإنسانية في كلّ إنسان، ويحدّثه عمّا يحسُّ به، ويدركه إدراكاً وجدانياً، وهذا ما يجعل الخطاب ذا صدقية وأثر في المخاطب.

إنّ التعريف والإعلام بما يتضمنه دين الإسلام ينبغي أن يكون خطابه، اليوم، مرتكزاً على هذه المفاهيم العليا، والأغراض الكلّية الجامعة، فالدعوة إلى العبادة، هي دعوة إلى مدِّ رواق الشريعة الإسلامية ليشتمل على الناس جميعاً، والخطاب الدعوي، إذا لم يأخذ في حسابه مضامين الدعوة القرآنية وآفاقها، فهو خطاب فاشل في البداية؛ لأنّه تختلط عليه مراتب الخطاب.

والخطاب القرآني، وهو يتوجه إلى الناس بالنداء، يؤسّس خطابه على مضامين واعدة، واستدلال منسجم وقضايا مركزية ثابتة؛ لأنّ حديث القرآن مع الناس من حيث هم ناس، لا فرق بين ذكرهم وأنثاهم وهذا الخطاب العام يؤطِّر مشروع القرآن الكريم، وهو مخاطبة الإنسان بكلّيات صالحة لجميع الناس، كونها تستقي مصداقيتها من واقعيتها وكونيتها وفاعليتها.

والوقوف على أنماط خطاب القرآن للناس، وتجريد مظاهره وقضاياه، سيسهم في ترشيد الخطاب الديني المعاصر، ومقوّمات هذا الخطاب هي من فقه الدعوة، وهو فقه لم يُتَح له أن يتطوّر ويتأطّر في ضوء أساسيات الشريعة، ومقتضيات الواقع، وظلّت جزئياته منتشرة في كتب الفقه، والنوازل، وغيرها، وهي موضع اجتهاد كبير فيه كلّيات جامعة، ومقاصد رائعة.

ويمكن تلخيص سمات الخطاب المتقدّم في أصولٍ جامعة تمثّل معالم فقه الدعوة الراشدة، وهي راجعة إلى مستويين:

**الأول**: مستوى البنية الخِطابية.

**الثاني**: مستوى مضامين الخطاب.

أمّا المستوى الأول؛ فنجد فيه معالم وأصولاً، ما أحرى الخطاب الدعوي بتلمُّسها واتِّباعها، ومن هذه الأصول:

**1- الإقبال لا الإعراض:**

هذا من أصول التواصل الكامنة في الخطاب القرآني، حيث نجد حرصه على الإقبال على المخاطب، والعناية به. ومن تجلّيات هذه العناية في خطاب الناس، اعتماد أسلوب النداء في المخاطبة، الذي يدلّ على توجّه المتكلّم إلى المخاطب بالحديث، واهتمامه به، وإقباله عليه.

كما يدلّ عليه استعمال كاف الخطاب، كما في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ}[الحج: 1].

وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ}[فاطر: 5].

وقوله سبحانه: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً}[النساء: 174].

إلى غير ذلك، وهذه المواجهة بالنداء، وكاف الخطاب، هي ترجمة للإقبال الذي يحظى به المخاطب من المتكلّم، وهذا الإقبال هو لعموم المخاطبين لا يقتصر على فئة دون أخرى، ولا يقوم على الانتقائية والتخصيص.

**2- البيان لا الإبهام:**

يمتاز الخطاب القرآني بوضوح العبارة، وخلوها من التعقيد والغموض. ووضوح العبارة من باب وضوح المقاصد، وهذه الصفة تجعل المخاطَب يتجاوب مع الخطاب بأدنى تكلفة، ويصل إليه المعنى من أقصر طريق. والخطاب الدعوي، الذي لا يراعي هذه الخاصية في الأسلوب، ويتحدّث مع العموم بما لا يلائم مستواهم وثقافتهم، هو خطابٌ فاشلٌ في التواصل مع المخاطبين؛ لأنّه لا يراعي مقام الخطاب ومقتضياته.

**3- الإجمال قبل التفصيل:**

يعتمد التواصل على خطاب الإجمال، كون الخطاب بالأمر المجمل أدعى إلى وعي السامع وتفهمه، وهو خطاب يقوم على اختزال المضمون في كلمات جامعة هي ملخَّص ما يبقى في ذهن المخاطب، ثمّ بعد

هذا الإجمال يكون التفصيل ببيان المعاني، التي تندرج تحت الإجمال، فيكون المخاطَب، وقد علِم بالأمر، مُجمِلاً مُقبلاً على التفاصيل، عارفاً بمتعلّقها وأصولها.

وأمّا نوعية المضامين، التي اشتملت عليها مطالب آيات النداء، فلها سمات يمكن إجمالها فيما يأتي:

1- الشمول: حيث تشتمل على جميع الناس من غير فرق بين زمانهم، ومكانهم، وأحوالهم، ومكانتهم، وهذا الشمول مبني على المُشترَك العام بين جميع الإنسانية، وهذا المشترك هو الذي يَتَنَزَّل الخطاب على أساسه، وينساق على مقتضاه.

والشمول في مضامين النداء له خطان متوازيان: وهما، شمول المواهب، الذي يقابله شمول المطالب. فالمواهب في آيات النداء عامّة لكلّ الإنسانية وهبها الله -عز وجل-لجميع خلقه، وهم متساوون فيها، فالخلق، والرزق، وغيرها، مواهب لجميع الإنسانية بمقتضى إنسانيتها، وهذه المواهب مقابَلَة بمجموعة من المطالب العامّة، أيضاً، والشاملة لجميع الإنسانية، فكان الشمول في المضامين شمولاً في المواهب والمطالب.

وهذا الترتيب بين المواهب والمطالب يأتي في نهاية سلسة النِّعَم، التي ابتدئت بنعمة الإيجاد، ثمّ بنعمة الإمداد، ثمّ نعمة الإسعاد.

وهذا الشمول له بُعدٌ موضوعي في المعالجة؛ لأنّه غير مُقتصِر على فئة دون أخرى؛ بل هو متجرّد من النزعات الإقليمية والشخصية.

2- العمق: مضامين الخطاب القرآني عميقة، وهذا العمق مُكتَسبٌ من طريقة معالجته للظواهر، وربطها بمقاصدها وآفاقها، وبناء المطالب عليها، فمثلاً، قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [البقرة: 168]. فالأكل فعل اعتيادي يُمارسه كلّ الناس، وهو غير محتاج إلى إصدار أمر فيه؛ لأنّ الوازع الطبعي مُغنٍ عن التكليف الشرعي، كما يقول أهل الأصول، ولكن جعله القرآن من جملة المطالب؛ ليلفت النظر إلى وجه المنّة فيه، وأن المآكل والمشارب، لو تأمَّل الإنسان في وجه تهيئتها له، وما سخره الله له فيها، وسهّل عليه من أمرها، لرأى فيها من لطيف التدبير ما يبعث على التأمُّل والتفكير. والأمر في الآية أمر امتنان وتفضُّل، وهو دليل العناية بالإنسان، وهذا المطلب جعله القرآن مرتبطاً بأكل الحلال الطيّب، وقابله بعدم اتّباع خطوات الشيطان، وهذه المقابلة بين أكل الحلال، وعدم اتّباع الشيطان، ترتقي بهذا المطلب العادي إلى مطلب عبادي، وتجعل المخاطَب يرتقي بسلوكه العادي، إلى أفق رحبٍ من التأمُّل، والمراقبة، والوعي المتيقظ.

وهذا العمق في الخطاب هو الذي يجعل الخطاب القرآني لا يورد المطالب غفلاً من تعليلها، ووضعها في سياق استدلالي مُقنع؛ بل يحرص على أن تكون المطالب مقدّمة في سياق من التعليل والتدليل، يكون كفيلاً بجعل المخاطَب يُعيد النظر في هذه المطالب على أساس من التعليلات التي تصاحبها.

3- التجدُّد: مطالب آيات النداء تتجدّد في كلّ عصرٍ مثل تجدّد المواهب، فكما أنّ كلّ جيل من الناس تتجدّد لهم النِعم والأرزاق، فكذلك هم يتجدّد لهم المطالبة بما يقتضيه الإنعام عليهم من العبادة، وهذا التجدُّد له صفة التجرُّد؛ لأنّه قابل للإسقاط على كل جيل من الناس؛ لكون قضاياه مجرَّدة تهمّ النوع الإنساني، وليس الأشخاص والأفراد.

4- الاختزال: اشتملت آيات النداء على مجموعة من المطالب العامّة، وهذه المطالب لو جُمِعَت لكانت على رؤوس الأصابع، وهي تندرج تحت المطلب العام الكبير، وهو عبادة الله تعالى، وهذا الاختزال له أثرٌ محمود في النفوس لكونه يقوم على حصر المطالب واختزالها، من أجل ضمان معرفة المخاطب، وفهمه لها، وذلك بخلاف ما لو كانت هذه المطالب متشعِّبة وكثيرة.

والخطاب الدعوي المعاصر ينأى، في بعض صوره، عن هذه الأصول والمعالم، ويُنتج خطاباً سمته الإعراض لا الإقبال، والإبهام لا البيان، كما أن مضامينه تفتقر إلى سمة الشمول، والعمق، والتجدّد، والاختزال، ما يجعله خطاباً مفتقراً إلى الرؤية، لا يؤتي ثماره المرجوّة، وصاحبه يسيء من حيث أراد أن يحسن، وفي هذا مفسدة عظيمة.

وتنوع أنماط الخطاب الإسلامي المعاصر ينعكس سلباً على الواقع، حيث يفضي إلى تباين هذا الخطاب، وتضارب مضامينه؛ بل تناقضه، أحياناً، وهذا كلّه نتيجة أدّى إليها عدم التزام الخطاب الإسلامي المعاصر بأصول الخطاب الدعوي في القرآن ومعالمه، هذا الخطاب الذي تؤسّس له الآية الكريمة الجامعة، وهي قوله سبحانه: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يوسف: 108].

فالدعوة إلى الله على بصيرة عنوان كبير يندرج تحته من أصول الخطاب ومعالمه ما سبق التنبيه إلى بعضه، وهذا يجعل الدعوة إلى الله وظيفة العالم، الذي له القدرة على التبصُّر. أمّا الوعّاظ، والقصّاصون، ومن كان على شاكلتهم ممّن ليس لهم باع في العلم، ولا قدرة على التبصُّر، فهؤلاء ليس عندهم من البصيرة ما ينعكس إيجاباً على خطابهم.

إنّ الدعوة، الآن، ملحةٌ أكثر من أيّ عصرٍ مضى في أن تتكاثف الجهود، من أجل الرجوع إلى الخطاب الدعوي الراشد، الذي نجد في القرآن الكريم معالمه وأصوله.

## المصادر والمراجع:


- أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، دار الكتب العلمية، تحقيق مجموعة من المحققين، لبنان- بيروت، الطبعة الأولى، 1422هـ - 2001م.
- أوستن، نظرية أفعال الكلام العامّة، ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا، 1991م.
- ابن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسّسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1420هـ - 2000م.
- خطابي محمد، لسانيات النصّ مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، 2006م.
- الراغب الأصبهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة.
- الزبيدي، تاج العروس، تحقيق مجموعة من المحقّقين، دار الهداية.
- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابى الحلبي وشركائه، الطبعة الأولى، 1376هـ - 1957م.
- الزمخشري، الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- زتسيسلاف واورزينياك، مدخل إلى علم النصّ مشكلات النصّ، ترجمة وتعليق سعيد بحيري، مؤسّسة المختار، الطبعة الأولى، 1424هـ2003-م.
- الشاطبي، الموافقات، تحقيق أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة الأولى، 1417هـ - 1997م.
- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، طبعة 1399هـ - 1979م.
- فان دايك، النصّ بنياته ووظائفه مدخل أوّلي على علم النص، ضمن كتاب: نظرية الأدب في القرن العشرين، ترجمة وإعداد الدكتور محمد العمري، إفريقيا الشرق، المغرب، الطبعة الثانية، 2004م، وتُرجِم ضمن كتاب: العلاماتية وعلم النص (نصوص مترجمة)، إعداد وترجمة منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، 2004م.
- فولفجانج هاينه من، وديتر فيهفيجر، مدخل إلى علم اللغة النصي، ترجمة فالح العجمي، النشر العلمي والمطابع جامعة الملك سعود، 1999م.
- ابن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م.
- كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنصّ مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، ترجمة سعيد حسن بحيري، مؤسّسة المختار للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1425هـ -2005م.
- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.
- احميده النيفر، عالمية الخصوصية في الخطاب القرآني، منشور ضمن موقع الرابطة المحمديّة، مركز الدراسات القرآنية: http://www.alquran.ma/Article.aspx?C=5802

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017

All rights reserved © 2017